

تفسير ابن كثير

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ^ص كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنْزِلِي لَكَ هَذَا ^ص قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة ، وأنه (أنبتها نباتا حسنا) أي : جعلها شكلا مليحا ومنظرا بهيجا ، ويسر لها أسباب القبول ، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم الخير والعلم والدين . ولهذا قال : (وكفلها زكريا) وفي قراءة : (وكفلها زكريا) بتشديد الفاء ونصب زكريا على المفعولية ، أي جعله كافلا لها . قال ابن إسحاق : وما ذاك إلا أنها كانت يتيمة . وذكر غيره أن بني إسرائيل أصابتهم سنة جذب ، فكفل زكريا مريم لذلك . ولا منافاة بين القولين . والله أعلم . وإنما قدر الله كون زكريا كافلا لسعادتها ، لتقتبس منه علما جمنا نافعا وعملا صالحا ، ولأنه كان زوج خالتها ، على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير [وغيرهما] وقيل : زوج أختها ، كما ورد في الصحيح : " فإذا يحيى وعيسى ، وهما ابنا الخالة " ، وقد يطلق على ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضا توسعا ، فعلى هذا

كانت في حضانة خالتها . وقد ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى في عمارة بنت حمزة أن تكون في حضانة خالتها امرأة جعفر بن أبي طالب وقال : " الخالة بمنزلة الأم " . ثم أخبر تعالى عن سيادتها وجلالتها في محل عبادتها ، فقال : (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا) قال مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وأبو الشعثاء ، وإبراهيم النخعي ، والضحاك ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، وعطية العوفي ، والسدي [والشعبي] يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف . وعن مجاهد (وجد عندها رزقا) أي : علما ، أو قال : صحفا فيها علم . رواه ابن أبي حاتم ، والأول أصح ، وفيه دلالة على كرامات الأولياء . وفي السنة لهذا نظائر كثيرة . فإذا رأى زكريا هذا عندها (قال يا مريم أنى لك هذا) أي : يقول من أين لك هذا ؟) قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) . وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا سهل بن زنجلة ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنا عبد الله بن لهيعة ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام أياما لم يطعم طعاما ، حتى شق ذلك عليه ، فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئا ، فأتى

فاطمة فقال : " يا بنية ، هل عندك شيء آكله ، فأني جائع ؟ " فقالت : لا والله بأبي أنت

وأمي . فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم ، فأخذته منها

فوضعتة في جفنة لها ، وقالت : والله لأؤثرن بهذا رسول الله [صلى الله عليه وسلم]

على نفسي ومن عندي . وكانوا جميعا محتاجين إلى شبعة طعام ، فبعثت حسنا أو حسينا

إلى رسول الله [صلى الله عليه وسلم] فرجع إليها فقالت له : بأبي وأمي قد أتى الله بشيء

فخبأته لك . قال : " هلمي يا بنية " قالت : فأتيته بالجفنة . فكشفت عن الجفنة فإذا هي

مملوءة خبزا ولحما ، فلما نظرت إليها بهتت وعرفت أنها بركة من الله ، فحمدت الله

وصلت على نبيه ، وقدمته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما رآه حمد الله وقال :

" من أين لك هذا يا بنية ؟ " فقالت يا أبت ، (هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء

بغير حساب) فحمد الله وقال : " الحمد لله الذي جعلك - يا بنية - شبيهة بسيدة نساء

بني إسرائيل ، فإنها كانت إذا رزقها الله شيئا فسئلت عنه قالت : (هو من عند الله إن

الله يرزق من يشاء بغير حساب) فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علي ثم أكل

رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكل علي ، وفاطمة ، وحسن ، وحسين ، وجميع أزواج

النبي صلى الله عليه وسلم وأهل بيته جميعا حتى شبعوا . قالت : وبقيت الجفنة كما هي ،
فأوسعت ببقيتها على جميع الجيران ، وجعل الله فيها بركة وخيرا كثيرا .